[١] أهمية التوحيد وفضله

قصة ابن جدعان [١] :

هو عبد الله بن جدعان بن كعب وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان من الحكماء الأجواد في الجاهلية المطعمين المغيثين ، وكان في بدء أمره فقيراً مملقاً ، وكان شريراً ، وكان يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وأبغضوه حتى أبوه .

فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً فرأى شقّاً في جبل فظن أن يكون به شيئ يؤذي فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه ، فلما اقترب منه إذا بثعبان يخرج إليه ويثب عليه فجعل يحيد عنه ويثب فلا يعنى شيئاً فلما دنا منه إذا هو من ذهب وله عينان هما ياقوتتان فكسره وأخذه ، ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جُرْهم ومنهم الحارث بن مضاض الذى طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب! ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدد ولايتهم ، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضة الشيء الكثير ، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلَّم [٢] باب الغار ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم ، وجعل يطعم الناس ، وكلما قل ما في يده ذهب إلى الغار فأخذ حاجته ثم رجع وكان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن .

وأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفى بعير تحمل البُر والشهد والسمن وجعل منادياً ينادى كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان .

---

(١) قصص وعبر في أحوال من غبر ، سلطان الراشد .
(٢) أي وسم باب الغار حتى يعرفه إذا رجع إليه .

ومع هذا كله فقد ثبت فى صحيح مسلم أن عائشة - رضى الله عنها - قالت يا رسول الله : إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ ، فقال : « **لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين** » . اللهم لك الحمد على نعمة هذا الدين ، ونسأل الله أن يغفر خطيئتنا يوم نلقاه [١] .

قال الإمام النووى : إن معنى هذا الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه فى الآخرة لكونه كافراً وهو معنى قوله ﷺ : « **لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين** » ، أى لم يكن مصدقاً بالبعث ومن لم يصدق به فهو كافر ولا ينفعه عمل .

قال القاضى عياض - رحمه الله تعالى - : وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ، لكن بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم [٢] .

وهذا يبين أيضاً فضيلة التوحيد ولزوم تحقيقه لله وحده لا شريك له ، وأن تكون الأعمال مقصوداً بها وجه الله تعالى حتى لا يكون مآله كما أخبر سبحانه : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** (٢٣) ﴾ [٣] .

كما أنه يبين أهمية بناء العمل على الاعتقاد الصحيح ، فإنك قد ترى بعض الناس يزعم لنفسه الإيمان والصلاة وهو يبطن العقيدة الفاسدة التى لو تلفظ بها لحكم بردته وخروجه من دين الإسلام .

---

(١) صحيح مسلم رقم « ٢١٤/١ » كتاب الإيمان ، وقصة ابن جدعان ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية وصاحب الفتح الربانى « ١٦٦/٢٠ » ابن كثير « ٢٠٢/٢ » .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى « ٨٦/٣ » .

(٣) سورة الفرقان الآية « ٢٣ » .

[٢] قصة تسخير نيل مصر لعمر رضي الله عنه

لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر أتى أهلها إليه حين دخل بونة من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنة لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها شيئاً من الحُلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل ، فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، فإن الإسلام يهدم ما قبله .

فأقاموا بونة وأبيب ومسرى « ٣ شهور » لا يجرى قليلاً ولا كثيراً حتى همُّوا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك . فكتب إليه عمر : قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل ، إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر » .

أما بعد :

فإن كنت تجرى من قِبَلك فلا تجرِ ... وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ، فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم . وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنهم لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً وقطع تلك السُّنة السوء من أهل مصر [١] .

---

(١) كرامات الصحابة لأسعد الطيب « ونقل هو عن حياة الصحابة ٦٠٢/٣ » .

[٣] البلاء موكل بالمنطق

اجتمع الكسائى واليزيدى عند الرشيد فحضرت صلاة المغرب ، فقدموا الكسائى « أحد القراء السبعة المشهورين » فصلى بهم فأرتج عليه فى قراءة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① ﴾ [١] ، « أخطأ أو نُسى فى الحفظ » . فلما سلم قال اليزيدى : قارئ وإمام أهل الكوفة يخطأ وينسى ويُرتج عليه فى سورة الكافرون ؟؟!! .

فحضرت صلاة العشاء ، فتقدم اليزيدى فصلى بهم فارتج عليه وأخطأ ونسى فى سورة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [٢] ، فلما سلم قال الكسائى له :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

(١) سورة الكافرون الآية « ١ » .
(٢) سورة الفاتحة الآية « ٢ » .

[٤] لقمة بلقمة [١]

كان لامرأة ابن ، فغاب عنها غيبة طويلة ، وأيست منه ، فجلست يوماً تأكل ، فحين كسرت اللقمة وأهوت بها إلى فيها ، وقف بالباب سائل يستطعم فامتنعت من أكل اللقمة ، وحملتها إلى تمام الرغيف فتصدقت بها ، وبقيت جائعة يومها وليلتها فما مضت إلا أيام يسيرة حتى قدم ابنها ، فأخبرها بشدائد عظيمة مرّت به .

وقال : أعظم ما جرى عليّ أنى كنت منذ أيام أسلك فى أجمة فى الموضع الفلانى ، إذا خرج عليّ أسد ، فقبض عليّ من على ظهر حمار كنت راكبه ، وغار [٢] الحمار ، ونشبت مخالب الأسد فى مرقّعة كانت عليّ ، وثياب تحتها وجّبة ، فلما وصل إلى بدنى كبير شيء من مخالبه ، إلا أنى تحيّرت ودهشت وذهب أكثر عقلي وهو يحملنى حتى أدخلنى أجمة كانت هناك ، وبرك عليّ ليفترسنى ، فرأيت رجلاً عظيم الخلق ، أبيض الوجه والثياب ، وقد جاء حتى قبض على الأسد من غير سلاح ، وشاله وخبط به على الأرض .

وقال : قُم يا كلب ، لقمةً بلقمة ، فقام الأسد يهرول وثاب إليّ عقلى .

فطلبت الرجل ، فلم أجده ، وجلست بمكانى ساعات إلى أن رجعت إليّ قوتى ، ثم نظرت إلى نفسى فلم أجد بها بأساً فمشيت حتى لحقت بالقافلة التى كنت فيها ، فتعجبوا لما رأونى ، فحدثتهم حديثى ، ولم أدر ما معنى قول الرجل لقمة بلقمة ، فنظرت المرأة ، فإذا هو وقت أخرجت اللقمة من فمها فتصدقت بها .

---

(١) الفرج بعد الشدة والضيق ، لإبراهيم الحازمى .

(٢) تعبير بغدادى ، مازال مستعملاً ، يعنى أغار أى أسرع فى عدوه .

[٥] الشجاع الأقرع [١]

يقول الراوى « عُينت ضابطاً فى ناحية قريبة من القاهرة ، ومن خلال عملى فى المخفر تعرفت على أحد رجال الحى البارزين فقد كان مساعداً للعمدة ، وكان حريصاً على توثيق صلاته مع رجال المخفر جميعاً ، فقد كان ولوعاً بالتقرب إلى السلطة ، حريصاً على الظهور والرفعة ، فلا ارتياح له إلا بما يحقق له مكانة سامية عند رجال المخفر ، وربما حان وقت الصلاة فأسارع إلى الصلاة وأؤدى الفريضة وأعود وصاحبنا فى مكانه على أحاديثه مستمراً دون سأم أو ملل ، تارة يجذب طرف الحديث إليه وتارة يجذبه رجال الشرطة إليه ... وتمر الأيام وصاحبنا على ما هو عليه حتى وكأنه أحد الموظفين فى المخفر ... وذات يوم وبينما رجال الشرطة يتحدثون إذا بأصوات وجلبة فهبوا ليعرفوا ما الذى حدث ... وسرعان ما علموا أن صاحبهم مساعد العمدة قد مات ، فقالوا جميعاً : إن لله وإنا إليه راجعون .

يقول الراوى : « إن الرجل كان يقدم لنا خدمات كثيرة ويوصل إلينا أخبار ضرورية ويساعدنا فى أمور عديدة ، ولذلك كان من الواجب أن نشيع – نحن رجال المخفر – جنازته ... وصدر الأمر بخروج رجال الشرطة على خيولهم أمام الجنازة ليكون المشهد مهيباً عظيماً ... وتوجهت الجنازة نحو المقر الذى يستوى فيه الأمير والغفير ، والصعلوك والوزير ... وخرجت القرية عن بكرة أبيها يودعون مساعد عمدتهم الوداع الأخير ، لقد كان الموكب مهيباً والمشهد رهيباً ...

---

(١) وقائع أغرب من الخيال للعثمان « بتصرف واختصار » .

الكل صامتون وكأن على رؤوسهم الطير ، ولكن أمراً مذهلاً قطع عليهم صمتهم وغير حالهم وبدد هدوءهم ، إذا بالخيول تضطرب اضطراباً عظيماً ، وإذا بالناس يهيجون ويموجون ويرتبكون فما الذى حدث : يُقسم راوى القصة بالله رب العالمين فيقول : ما إن اقتربنا من قبر الرجل الذى حفر له ، وإذا بثعبان عظيم أقرع قد فتح فمه الواسع وتوجه نحو الجنازة يسارع بكل شجاعة وقوة ، فخاف الناس أشد الخوف وألقوا بالجنازة على الأرض ثم تراجعوا عنها بعيداً بعيداً ، واجتمعوا من جديد وظلوا يتشاورون فى هذه المشكلة وفى النهاية اتفقوا على أن يتقدم شابان جلدان لينظروا ما حدث للجنازة ، ويحملانها إن أمكن وفعلاً زحف الشابان نحو الجنازة فعرفا أن الثعبان قد ابتعد عنها ثم حملاها على تخوف ورعب إلى الجماعة حيث اتفقوا بعد المشاورة على حفر قبر جديد بعيد عن القبر الأول بحوالى خمسمائة متر ... .

وتقدم القوم بالجنازة فى رعب شديد واضطراب كبير ... وما أن اقتربوا من القبر الجديد حتى شاهدوا ذلك الثعبان العظيم قد عاود الكرة وتوجه من الحفرة الجديدة نحو الجنازة فى شجاعة ومهارة ... فأسقط فى أيدى القوم وألقوا بالجنازة على الأرض والخوف يملأ القلوب والذعر يتملك القوم ثم أطلقوا أرجلهم للريح ، وأصبح البعض الآخر يولول ويصيح ، ثم اجتمع القوم من جديد فى مكان بعيد عن الثعبان ... ووقف بهم شيخ القرية خطيباً وواعظاً منادياً بأعلى وأخلص صوته : أيها القوم إنه والله لدرس لكم يجب ألا ينسى ، وعبرة لقلوبكم يجب ألا تمحى لقد أراد الله تعالى بحكمته أن يريكم عجائب قدرته وقوة قهره وشدته فتوبوا إلى ربكم توبة نصوحاً ، وأعطوه عهداً صحيحاً على عدم العودة إلى الذنوب ثم أشار إليهم أن ينتظروه حتى يكلم الثعبان ... .

وتوجه نحو الثعبان قائلاً بأعلى صوته : أيها الشجاع الأقرع ، أخبرنا عنك رسول الله ﷺ ونحن نطلب منك أن تبتعد عنا حتى ندفن هذا الميت ثم افعل به ما أُمرت وما شئت وعذبه ما أُمرت ، فاستجاب بإذن الله ذلك الثعبان ، وغاب عن الجمع الموجود ، فتقدم القوم نحو الجنازة وقربوها من قبرها ورموه فى القبر رمياً وكأنه بهيمة من البهائم ولم يجرؤ أحد منهم على إنزاله ثم أهيل على الجثة التراب بكل سرعة والدموع تنهمر من الخوف والخشوع ، وعاد القوم وهم لا يصدقون أنهم انتهوا من هذه الكارثة الشديدة واستولى الخوف عليهم أياماً متوالية وصورة الثعبان أمام أعينهم ماثلة باقية .

ويقسم راوى القصة بالله فيقول : والله الذى لا إله غيره ما تحدثت إلا بما رأيت ولا تكلمت إلا بما شاهدت رأى العين دون أى مبالغة أو زيادة ، ثم يضيف : لا تعجب من عقاب الله الأليم لهذا الرجل المجرم ، فقد كان هذا الرجل تاركاً للصلاة مانعاً للزكاة مطيعاً للشيطان ، يقضى أيامه فى اللهو والمجون والغيبة والنميمة ... ولقد نصحته مرات عديدة ووعظته طويلاً فلم يقبل نصحاً ، ولم يترك ذنباً ولم يصلح عيباً ولم يحسب حساباً ليوم موته ودفنه حتى أدركه المنون ولعنه اللاعنون » (*) وصدق الله العظيم ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ (١) .

(*) حكى الشيخ سعيد بن مسفر فى شريط له قصة قريبة من هذه القصة وفى نهايتها أن الثعبان خر فى المرة الثالثة والتف حول الميت واشتد عليه حتى سمعوا صوت تكسير عظامه ... ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) سورة الحشر الآية (٢) .

[٦] ثلاث لا يعلمهن إلا نبي

روى البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمع عبد الله ابن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف « يجتنى من الفواكه » فأتى النبى ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى :

فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ ، وما ينزع « يشبه » الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟. قال : « **أخبرنى بهن جبريل آنفاً** » ، قال : جبريل؟ قال : **نعم** . قال : ذلك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ (١) .

أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ... يارسول الله إن اليهود قوم بُهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ : « **أى رجل عبد الله فيكم؟** » قالوا: خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا. فقال : « **أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟** » فقالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه . قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله .

وفيه أنزل الله تعالى : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية « ٩٦ » .

(٢) سورة الأحقاف الآية « ١٠ » .

[٧] وكان الشيطان رابعنا !!! (١)

قال أبو عبد الله :

« لا أعرف كيف أروى لك هذه القصة التى عشتها منذ فترة والتى غيّرت مجرى حياتى كلها ، والحقيقة أننى لم أقرر أن أكشف عنها ... إلا من خلال إحساسى بالمسئولية تجاه الله عز وجل ... ولتحذير بعض الشباب الذى يعصى ربه ... وبعض الفتيات اللاتى يسعين وراء وهم زائف ... اسمه الحب ! .

كنا ثلاثة من الأصدقاء ... يجمع بيننا الطيش والعبث ! كلا ... بل أربعة ... فقد كان الشيطان رابعنا .

فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول ونستدرجهن إلى المزارع البعيدة ... وهناك يُفاجأن بأننا قد تحولنا إلى ذئاب لا نرحم توسلاتهن بعد أن ماتت قلوبنا ومات فينا الإحساس ! .

هكذا كانت أيامنا ولياليا فى المزارع ، فى المخيمات ، والسيارات على الشاطئ ! إلى أن جاء اليوم الذى لا أنساه ! .

ذهبنا كالمعتاد للمزرعة ... كان كل شيء جاهزاً ... الفريسة لكل واحد منا ، الشراب الملعون ... شيء واحد نسيناه هو الطعام ... وبعد قليل ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته كانت الساعة السادسة تقريباً عندما انطلق ، ومرت الساعات دون أن يعود ... وفى العاشرة شعرت بالقلق عليه فانطلقت بسيارتى أبحث عنه ... وفى الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبى

---

(١) للشباب فقط لعادل العبد العالي .

الطريق ... وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقى والنار تلتهمها وهى مقلوبة على أحد جانبيها ... أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة ... وذهلت عندما وجدت نصف جسده وقد تفحم تماماً لكنه كان ما يزال على قيد الحياة فنقلته إلى الأرض ... وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذى ... النار ... النار ... .

فقررت أن أحمله بسيارتى وأسرع به إلى المستشفى لكنه قال لى بصوتٍ باكٍ : لا فائدة ... لن أصل . فخنقتني الدموع وأنا أرى صديقى يموت أمامى ... وفوجئت به يصرخ : ماذا أقول له ... ماذا أقول له ؟ نظرت إليه بدهشة وسألته : من هو ؟ قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق : الله .

أحسست بالرعب يجتاح جسدى ومشاعرى وفجأة أطلق صديقى صرخة مدوية ... ولفظ آخر أنفاسه ... ومضت الأيام لكن صورة صديقى الراحل وهو يصرخ والنار تلتهمه ... ماذا أقول له ... ماذا أقول له ؟ .

ووجدت نفسى أتساءل : وأنا ... ماذا سأقول له ؟ فاضت عيناى واعترتنى رعشة غريبة ... وفى نفس اللحظة سمعت المؤذن لصلاة الفجر : الله أكبر الله أكبر ... أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن محمداً رسول الله ... حي على الصلاة ... أحسست أنه نداء خاص بى يدعونى لأسدل الستار على فترة مظلمة من حياتى ... يدعونى إلى طريق النور والهداية ... فاغتسلت وتوضأت وطهرت جسدى من الرذيلة التى غرقت فيها لسنوات ... وأديت الصلاة ... ومن يومها لم يفتنى فرض ! .

وأحمد الله الذى لا يُحمد سواه ... لقد أصبحت إنساناً آخر وسبحان مُغير الأحوال ... وبإذن الله تعالى أستعد للذهاب لأداء العمرة ... وإن شاء الله الحج فمن يدرى ... الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى ... » .

[٨] (أ) قصة الحمار الميت الحي [١]

عن أبي سبرة النخعي قال :

أقبل رجل من اليمن فلما كان في بعض الطريق نفق « مات » حماره ، فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين . ثم قال : اللهم إني جئت من الدُثنية مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور ، ولا تجعل لأحدٍ على اليوم مِنَة . أطلب إليك أن تبعث لي حماري .

فقام الحمار ينفض أذنيه

قال البيهقي : ومثل هذا لا يكون كرامة لصاحب الشريعة حيث يكون في أمته مثل هذا .

(ب) قصة المهاجرة التي أحيا الله تعالى ولدها بدعائها

عن أنس قال : عدنا شاباً من الأنصار وعنده أم له عجوز عمياء قال : فما برحنا أن فاض يعني : مات . ومددنا على وجهه الثوب ، وقلنا لأمه : يا هذه احتسبي مصابك عند الله . قالت : أمات ابني ؟ . قلت : نعم ، قال : اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني عند كل شديدة فلا تحمل عليّ هذه المصيبة اليوم .

قال أنس : فوالله ما برحت حتى كشف الثوب عن وجهه وطعم وطعمنا معه [٢] .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي والبداية وقال : هذا إسناد رجاله ثقات .

[٩] الحصاد المر [١]

انضم خالد إلى حلقة تحفيظ القرآن الكريم ... كان خجولاً هادئاً ... كثير الصمت ... نشيطاً فى الحفظ والمراجعة ... أحب الجميع ... وأحبه الجميع ... يقول أستاذه : لم نكن ننكر عليه أى شيء إلا شروده الطويل وتفكيره الساهم ... فأخذته يوماً فى رحلة إلى شاطئ البحر فلعل سره الكبير يلتقى مع هذا البحر الكبير فيفرغ ما فى نفسه من هم ويخرج ما فى روحه من ألم ... ووقفت أمام هذا الفتى الصامت أمام هذا البحر الهادئ الصامت ... المنظر كله صمت ... فى صمت ... وفجأة يخترق هذا السكون الصامت ... صوت بكاء حار ... ونحيب مر ... صوت خالد وهو يبكى ... لم أشأ أن أقطع عليه لذة البكاء وطعم الدموع فلعل ذلك يريح نفسه ... ويزيل همه ... وبعد لحظات قال : إنى أحبكم ... أحب القرآن ... وأهل القرآن الصالحين ... الطيبين ... ولكن أبى ... أبى يحذرنى دائماً أن أمشى معكم ... يخاف منكم ... يكرهكم ... دائماً يبغضنى فيكم ... ويستشهد على ذلك بقصص وحكايات وأساطير ... لكن عندما أراكم فى الحلقة تقرؤون القرآن كنت أرى النور فى وجوهكم وفى كلامكم ... ولما انضممت للحلقة شعرت بالسعادة ... واجتهدت فى حفظ القرآن ... كانت ليالى وأيامى كلها قرآناً ... ولاحظ أبى التغيير الذى طرأ على حياتى ، عرف بطريقة أو بأخرى أننى دخلت التحفيظ ومشيت مع المطاوعة [٢] حتى كانت تلك الليلة السوداء ... كنا ننتظر حضوره من المقهى .. كعادته

---

(١) الميلاد الجديد : للغامدى بتصرف واختصار .

(٢) المطاوعة : يطلقها العوام فى بعض البلاد العربية على من أطلق لحيته والتزم الشرع .

اليومية .. لنتناول العشاء فدخل البيت بوجهه المظلم وتقاطيعه الغاضبة ، وجلسنا على سفرة الطعام ... الكل صامت ... كالعادة ... كلنا نهاب الكلام فى حضوره . ثم قطع الصمت بصوته الأجش الجهورى : لقد سمعت أنك تمشى مع المطاوعة ، فانعقد لسانى ... وذهب بيانى ... ولم ينتظر الإجابة ... تناول إبريق الشاى ... ورماه بقوة فى وجهى ... ودارت الدنيا فى رأسى ... وسقطت فحملتنى أمى ... وصحوت من إغماءتى الخفيفة على يديها الدافئة وإذا بالصوت الجهورى يقول : اتركيه ... وإلا أصابك ما أصابه ... فاستللت جسمى من بين يدى أمى وتحاملت على نفسى لأذهب إلى غرفتى وهو يشيعنى بأبشع الشتائم ... وأحط الألقاب ... لم يكن يمر يوم إلا وهو يضربنى ... يشتمنى يركلنى .. يرمينى بأى شىء يجده أمامه ... حتى أصبح جسمى لوحة مرعبة اختلطت فيها الألوان الداكنة .

كرهته ... أبغضته ... امتلأ قلبى بالحقد عليه ... يوم من الأيام ونحن على سفرة الطعام قال : قم ولا تأكل معنا ... وقبل أن أقوم ... قام هو وركلنى فى ظهرى ركلة أسقطتنى على صحن الطعام ... تخيلت أننى أصرخ وجهه : سوف أقتص منك ... سوف أضربك كما تضربنى وأشتمك كما تشتمنى ، سوف أكبر ... وأصبح قوياً ... وسوف تكبر وتصبح ضعيفاً ... عندها أفعل بك كما تفعل بى ... ثم هربت ... وخرجت من المنزل ... وأصبحت أجرى وأجرى على غير هدى وبدون هدف حتى ساقتنى رجلى إلى هذا البحر وأمسكت بالمصحف أقرأ فيه حتى لم أستطع أن أواصل من كثرة البكاء وشدة النحيب عندها نزلت من خالد بعضاً من دموعه النقية ... ولم أنبش بكلمة فقد ربط العجب لسانى ، هل أعجب من هذا الأب الوحشى الذى خلا قلبه من

الرحمة ، أم أعجب من هذا الابن الصابر الذى أراد الله عز وجل له الهداية فألهمة الثبات ؟ ، أم أعجب منهما الاثنين حين استحالت رابطة الأبوة والبنوة بينهما أشلاء وصارت علاقتهما كعلاقة الثعلب بالذئب والأسد بالنمر ...؟؟ أخذته بيدى ومسحت دموعه بيدى وصبّرته ... دعوت له ونصحته ببر والده والصبر على أذاه ... ووعدته بأن أقابل والده وأكلمه وأستعطفه ... ومضينا ... ومرت الأيام ... وأنا أفكر فى الطريقة التى أفاتح بها والد خالد فى موضوع ابنه وكيف أقنعه ... بل كيف أعرفه على نفسى ... وأخيراً ... استجمعت قواى وقررت أن تكون المواجهة ... أقصد المقابلة فسرت إلى منزله وطرقت الباب ... ويدى ترتجف .. ثم فتح الباب ... وإذا بذلك الوجه العابس ، وتلك التقاطيع الغاضبة .. .فابتسمت ابتسامة صفراء لعلها تمتص نظراته السوداء ... وقبل أن أتكلم ... أمسك بتلابيب ثوبى وشدنى إليه وقال : أأنت المطوع الذى تدرس خالداً فى المسجد ؟؟ ... قلت : ن . ع . م . .. قال : والله لو رأيتك تمشى معه مرة أخرى كسرت رجلك ، خالد لن يأتيكم بعد الآن ، ثم جمع مادة فمه ... وقذف بها دفعة واحدة فى وجه الفقير إلى الله ، وأغلق الباب وكان ختامها مسكاً ... فمسحت عن وجهى ولحيتى ما أكرمنى به ... ورجعت وأنا أسلى نفسى ... رسول الله ﷺ فُعل به أكثر من ذلك ، كذبه قومه وشتموه ورموه بالحجارة ، أدموا رجله ... وضعوا القاذورات فوقه ... طردوه وأخرجوه من أرضه ... فمرت ومرت الأيام والشهور ونحن لا نرى خالداً ... فأبوه يمنعه حتى من الخروج للصلاة ، ونسيناه فى غمرة الحياة ... ومرت السنون وفى ذات ليلة بعد صلاة العشاء وفى المسجد إذ بيد غليظة تمسك بكتفى ... آه إنها ذات اليد التى أمسكت بعنقى قبل سنين ... إنه نفس الوجه ... ونفس التقاطيع ... ونفس الفم الذى أكرمنى بما لا أستحق ... ولكن هناك تغيراً كبيراً ... الوجه العابس

... أصبح منكسراً والجسم هدته الآلام والهموم ... فقلت : أهلاً يا عم ورحبت به فانفجر باكياً ... سبحان الله ما كنت أظن أن ذلك الجبل سوف يصبح يوماً سهلاً فقلت تكلم يا عم وأخرج ما فى نفسك كيف حال خالد ؟ فتنهد بعمق وقال : أصبح خالد يا بنى ليس خالداً الذى تعرفه ، ليس خالداً الفتى الطيب الهادى الوديع ... منذ أن خرج من عندكم تعرف على شلة من شلل الفساد يلهو ويلعب ... بدأ بالدخان معهم مشتمته وضربته ... لا فائدة فقد تعود جسمه على الضرب واستساغت أذناه الشتائم ... كبر بسرعة كان يسهر معهم ولا يأتى إلا مع خيوط الفجر ، طُرد من المدرسة أصبح يأتينا ليلاً بلسان يُهذى ويد ترتعش ... تغير ذلك الجسم الغض الطرى أصبح جسمه مهترئاً ضعيفاً ... أصبح وجهه أسود وعينه حمراء كالنار ، ذهب قلبه الطيب البار ، واستحال قلباً قاسياً كالصخر أو أشد ... أصبح لا يمر يوم إلا ويشتمنى أو يركلنى أو يضربنى ... تصور يا بنى أنا أبوه يضربنى ... ثم عاود بكاءه الحار ثم مسح دموعه ، أرجوك يابنى زوروا خالداً خذوه معكم . بيتى مفتوح لكم ، بل إننى راضٍ أن يعيش فى منازلكم وينام معكم ، أرجوك يا بنى أقبّل يدك وألثم رجليك أرجوك ، المهم أن يرجع خالداً كما كان ، ومضى فى بكائه ونحيبه وحسراته وتركته حتى أنهى ذلك كله ، فقلت له : ياعم ذاك زرعك ، وهذا حصادك ، ورغم ذلك دعنى أحاول .